ومن عجائبها أيضاً أنك تشعر بحرارتها على الأرض المنبسطة فإذا ما ارتفعت فوق جبل مثلاً أو منطقة عالية تقلّ درجة الحرارة مع أنك تقترب من الشمس ، على خلاف ما لو أوقدتَ ناراً مثلاً فتجد أن حرارتها تنخفض كلما ابتعدت عنها ، أما الشمس فكلما اقتربت منها قلَّتْ درجة الحرارة ، فمَنْ يقدر على هذه الظاهرة ؟

فإذا جاء مَنْ يخبرنى أنه خالق هذه الشمس أقول له : إذن هى لك ، إلى أن يأتى منازع يدَّعيها لنفسه ، ولم يأت منازع يدَّعيها إلى الآن .

وقولهم : ﴿ افْتَرَىٰ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [المؤمنون] مبالغة منهم فى حقّ رسولهم ؛ لأن الافتراء : تعمُّد الكذب ، والكذب كما قلنا : أن يأتى الكلام مخالفاً للواقع ، وقد يأتى الكلام مخالفاً للواقع لكن حسب علم صاحبه ، فهو فى ذاته صادق .

﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ ﴾

سبحان الله ، كأن تاريخ الرسالات يعيد نفسه مع المكذِّبين ، وكأنه ( أكلشيه ) ثابت على ألسنة الرسل : اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، فيتهمونه ويُكذِّبونه ويقولون : ما أنت إلا بشر مثلنا ، فتأتى النهاية واحدة : ربِّ انصرنى بما كذَّبون ، يعنى : أبدلنى بتكذيبهم نَصْراً .

هذه قَوْلة هود ـ عليه السلام ـ حين كذَّبه قومه ، وقوْلة نوح ، وقوْلة كل نبى كذَّبه القوم ؛ لأن الرسول حين يُكذَّب من المرسل إليهم لا يفزع إلا إلى مَنْ أرسله ؛ لأن مَنْ أرسله وعده بالنصرة والتأييد : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

وقال : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الحج]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [الصافات]

فالمعنى : انصرنى لأنك أرسلتنى ، وقد كذَّبنى القوم بعد أن استنفدتُ فى دعوتهم كل أسبابى ، ولم يَعُدْ لى بهم طاقة ، ولم يَعُد لى إلا معونتك . والإنسان حين يستنفد كل الأسباب التى منحه الله إياها دون أن يصل إلى غايته فقد أصبح مضطراً داخلاً فى قوله سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل]

إذن : لا تلجأ إلى الله إلا بعد أنْ تؤدى ما عليك أولاً ، وتفرغ كل ما فى طاقتك فى سبيل غايتك ، لكن لا تقعد عن الأسباب وتقول : يا رب فالأرض أمامك والفأس فى يدك ومعك عافية وقدرة ، فاعمل واستنفد أسبابك أولاً حتى تكون فى جانب المضطر الذى يُجيب الله دعاءه .

لذلك نسمع كثيراً مَنْ يقول : دعوتُ الله ولم يستجب لى ، ونقول له : أنت لم تَدْعُ بدعاء المضطر ، أنت تدعو بدعاء مَنْ فى يده الأسباب ولكنه تكاسل عنها ؛ لذلك لا يُستجاب لك .

وهذه نراها حتى مع البشر ، ولله تعالى المثل الأعلى : هَبْ أنك صاحب مال وتجارة وجاءتك بضاعة من الجمرك مثلاً ، وجلست تراقب العمال وهم يُدخلونها المخازن ، فليس من مهامك الحمل والتخزين فهذه مهمة العمال ، لكن هَبْ أنك وجدت عاملاً ثقُلَ عليه حمْله وكاد الصندوق أن يوقعه على الأرض ، ماذا يكون موقفك ؟ لاَ شكَّ أنك ستفزع إليه وتأخذ بيده وتساعده ؛ لأنه فعل كل ما فى وُسْعه ، واستفرغ كل أسبابه وقواه ، فلم تضِنّ أنت عليه بالعون .

كذلك ربك - عز وجل - يريد منك أن تؤدى ما عليك ولا تدعه لشيء قد جعل لك فيه أسباباً ؛ لأن الأسباب يد الله الممدودة لخَلْقه ، فلا ترد يد الله بالأسباب لتطلب الذات بلا أسباب .

لذلك جاء قول الرسل الذين كُذبوا : ﴿رَبِّ انصُرْنِي .. (٣٩)﴾ [المؤمنون] ليس وأنا قاعد متخاذل متهاون ، ولكن ﴿بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩)﴾ [المؤمنون] يعنى : فعلت كل مَا فى وُسْعى ، ولم يَعُدْ لى بهم طاقة .

فتأتى الإجابة على وجه السرعة :

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)﴾

﴿عَمَّا قَلِيلٍ.. (٤٠)﴾ [المؤمنون] يعنى : بعد قليل ، فـ ( عن ) هنا بمعنى بعد ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ (١٩)﴾ [الانشقاق] يعنى : بعد طبق .

أما ﴿مَّا .. (٤٠)﴾ [المؤمنون] هنا فقد دلَّتْ على الظرف الزمنى ؛ لأن المراد بعد قليل من الزمن .

﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠)﴾ [المؤمنون] حين يقع بهم ما كانوا به يُكذِّبون ، ويحلّ عليهم العذاب يندمون ، لأنهم لن يستطيعوا تدارك ما فاتهم ، فليس أمامهم إذن إلا الندم ، وهذه المسألة دلَّتْ على أن الفطرة الإنسانية حين لا تختلط عليها الأهواء تنتهى فى ذاتها إلى الحق ، وإنْ أخرجها الغضب إلى الباطل ، فإنها تعود إلى توازنها وإلى الجادة حين تهدأ ثورة الغضب .

والحق - تبارك وتعالى - يعطينا أدلةً وإشارات حول هذه القضية فى قصة ولدى آدم عليه السلام فيقول : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ

إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) ﴾ [المائدة]

إلى أنْ قال سبحانه : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ .. (٣٠) ﴾ [المائدة] فجاء القتل أثراً من آثار الغضب ، والمفروض أنه بعد أن قتله شفى نفسه ، وينبغي له أن يُسَرَّ لأنه حقق ما يريد ، لكن ﴿ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ [المائدة].

أى : بعد أن هدأتْ ثورة الغضب بداخله ندم على ما فعل ، لماذا ؟ لأن هذه طبيعة النفس البشرية التى لا يُطغيها ولا يُخرجها عن توازنها إلا الهوى ، فإنْ خرج الهوى عادت إلى الاستقامة وإلى الحق ، وكأن الله تعالى خلق فى الإنسان مقاييس يجب ألاَّ تُفسدها الأهواء ولا يُخرِجها الغضب عن حَدِّ الاعتدال ؛ لذلك يقولون : آفة الرأى الهوى .

لقد استيقظ قابيل ، لكن بعد أنْ رأى عاقبة السوء التى وصل إليها بتسرُّعه ، لكن الذكى يستيقظ قبل رَدِّ الفعل .

لكن ، لماذا اختار لهم وقت الصباح بالذات : ﴿ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) ﴾ [المؤمنون] المتتبع لما حاق بالأمم المكذِّبة من العذاب والانتقام يجد أنه غالباً ما يكون فى الصباح ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) ﴾ [القمر]

وقال سبحانه : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) ﴾ [القلم]

ذلك ، لأن الصباح يعقب فترة النوم والخمول الحركى ، فيقومون من نومهم فيفاجئهم العذاب ، ويأخذهم على حين غفلة وعدم استعداد للمواجهة ، على خلاف إنْ جاءهم العذاب أثناء النهار وهم مستعدون .

وندمهم على أنهم كذَّبوا أمراً ما كان ينبغى أن يُكذَّب وقد جَرَّ

عليهم الوَيْلات ، والندم على خير فات من طبيعة النفس البشرية التى عادةً ما تغلبها الشهوة ويُغريها الحمق بردُّ الحق ، ويمنعها الكِبْر من الانصياع للرسول خاصة وهو بشر مثلهم ، ويريد فى ظنهم أنْ يستعلى عليهم ، لكن حين يواجهون عاقبة هذا التكذيب ونتيجة هذا الحمق يندمون ، ولاتَ ساعة مَنْدم .

إذن : فشهوة النفس تجعل الإنسان يقف موقفاً ، إذا ما جُوزى عليه بالشدة يندم أنه لم يُنفذ ولم يطع ، يندم على غطرسته فى موقف كان ينبَغى عليه أنْ يتنازل عن كبريائه ؛ لذلك يقولون : من الشجاعة أنْ تجبن ساعة .

ويحسن ذلك إذا كنت أمام عدو لا تقدر على مجابهته ، ونذكر للرئيس الراحل السادات مثل هذا الموقف حين قال : لا أستطيع أن أحارب أمريكا ، فالبعض فهم هذا القول على أنه ضَعْف وجُبْن ، وهو ليس كذلك ، إنما هو شجاعة من الرجل ، شجاعة من نوع راقٍ ؛ لأن من الشجاعة أيضاً أن تشجع على نفسك ، وهذه شجاعة أعلى من الشجاعة على عدوك ، وتصور لو دخل السادات مثل هذه الحرب فهُزم كيف سيكون ندمه على شجاعة متهورة لا تحسب العواقب . وقد رأينا عاقبة الجرأة على دخول حرب غير متكافئة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

ما دام أن الحق ـ تبارك وتعالى ـ توعَّدهم وحدَّد لهم موعداً ،

فلا بُدَّ أن يقع بهم هذا الوعيد فى الوقت ذاته ، وإلاَّ لو مَرَّ دون أن يصيبهم ما يندمون لأجله لانهدم المبدأ من أساسه ، ما دام أن الله تعالى قالها وسجَّلها على نفسه سبحانه فى قرآن يحفظه هو .

﴿ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ۝٤٠ ﴾ [المؤمنون] فلا بُدَّ أن ينزل بهم العذاب فى الصباح .

لذلك ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ .. ۝٤١ ﴾ [المؤمنون] لا بالظلم والعدوان ، وفى موضع آخر قال سبحانه عنهم : ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ ﴾ [الحاقة] والمعنيان يلتقيان ، لأن الريح الصرصر لها صوت مزمجر كأنه الصيحة والصراخ .

﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً .. ۝٤١ ﴾ [المؤمنون] الغثاء : ما يحمله السيل من قش وأوراق وبقايا النبات ، فتكون طبقة طافية على وجه الماء تذهب بها الريح فى إحدى الجوانب ، والغثاء هو الزَّبَد الذى قال الحق سبحانه وتعالى عنه : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ .. ۝١٧ ﴾ [الرعد]

وفى الحديث الشريف قال ﷺ لأصحابه : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها - يعنى : يدعو بعضهم بعضاً لمحاربتكم كأنكم غنيمة يريدون اقتسامها - فقالوا : أمِنْ قلَّة نحن يا رسول الله ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل »[1] يعنى : شيئاً هيِّناً لا قيمة له يذهب سريعاً .

وقوله تعالى : ﴿ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٤١ ﴾ [المؤمنون] أى : بُعداً لهم عن رحمتنا ونعيمنا الذى كُنَّا نُمنِّيهم به ونَعِدهم به لو آمنوا ،

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ( ٥/٢٧٨ ) ، وأبو داود فى سننه ( ٤٢٩٧ ) من حديث ثوبان مولى رسول الله ﷺ .

وليس البُعد عن العذاب ؛ لأن البعد مسافة زمنية أو مكانية ، نقول : هذا بعيد ، أى : زمنه أو مكانه ، المراد هنا البُعْد عن النعيم الذى كان ينتظرهم إنْ آمنوا .

والظلم : كما قلنا أخْذ حَقِّ الغير ، والشرك هو الظلم الأعظم ؛ لأنه ظلم فى مسألة القمة ، والبعض من السطحيين يظن أن الشرك ظلم عظيم ؛ لأنك ظلمتَ الله سبحانه وتعالى ، لأنك أنكرتَ وجوده وهو موجود ، وأشركتَ معه غيره وهو واحد لا شريك له ، نعم أنت ظلمتَ ، لكن ما ظلمتَ الله ؛ لأنه سبحانه لا يظلمه أحد ، وإنْ كان الظلم - كما نقول - أَخْذ حَقِّ الغير ، فحقُّ الله محفوظ وثابت له سبحانه قبل أن يُوجَد مَنْ يعترف له بهذا الحق ، حقُّ الله ثابت مهما علاَ الباطل وتبجَّح أهل الضلال .

لذلك يقول عز وجل : ﴿ وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ .. (٤٠) ﴾ [التوبة] وفى المقابل : ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. (٤٠) ﴾ [التوبة] ولم يقُل قياساً على الأولى : وكلمةَ الله العليا ؛ لأن معنى ذلك أن كلمة الله لم تكُنْ عليا فى يوم ما ؛ لذلك جاءت وكلمةُ الله مرفوعةً على صورة الجملة الاسمية الدالّة على الثبوت ﴿ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا .. (٤٠) ﴾ [التوبة] أى : دائماً ومهما علَت كلمة الكافرين . لماذا ؟

قالوا : لأن علُو كلمة الكافرين فى ذاته علُوٌّ لكلمة الله ، فإذا علا الكفر واستشرى شرُّه وفساده يعض الناس ويُوقظ غفلتهم ويُنبههم إلى خِسَّة الكفر ودناءته وما جرَّه عليهم من ظلم وفساد فينكروه ويعودوا إلى جادة الطريق ، وإلى الحق الثابت لله عز وجل .

إذن : فكلمة الله هى العليا مهما كانت الجولة لكلمة الذين كفروا ، وكما يقولون : والضد يُظهر حُسْنه الضدّ . والله عز وجل لا يُسْلِم

الحق ، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه ، فإنْ لم يغاروا عليه غار هو عليه .

وما داموا ما ظلموا الله ، ولا يستطيعون ذلك ، فما ظلموا إلا أنفسهم ، وإنْ عُقِل ظلمك لغيرك وأخذك لحقه فلا يُعقَل ظلمك لنفسك ؛ لأنه أبشع أنواع الظلم وأبلغها .

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

قبل عدة آيات قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [المؤمنون] فجاءتْ قرناً بصيغة المفرد ؛ لأن الحديث مقصور على عاد قوم هود ، أما هنا فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [المؤمنون] لأن الكلام سيأتى عن أمم ورسالات مختلفة ومتعددة ، فجاءت ( قروناً ) بصيغة الجمع ، قروناً متتابعة أو متعاصرة ، كما تعاصر إبراهيم ولوط ، وكما تعاصر موسى وشعيب عليهم جميعاً وعلى نبينا الصلاة والسلام .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

تأملوا هذه الآية جيداً وارْعَوْها انتباهكم ، فلكل أمة أجلٌ تنتهى عنده تماماً ، مثل أجَل الأفراد الذى لا يتقدّم ولا يتأخّر ، فقَرْن بعد قَرْن ، وأمة بعد أمة ، تمرُّ بأطوار شتى كأطوار حياة الإنسان ، ثم تنتهى إلى زوال ويعقبها غيرها .

فلكل أمة رسول يحمل إليها دعوة الله ومنهجه ويجاهد فى سبيل نشرها إلى أنْ ينصره الله وتنتشر دعوته ويتمسَّك الناس بها ، ثم

تصيبهم غفلة وفتور عن منهج الله ، فينصرفون عنه ويختلفون ويتفرقون ، فيكون ذلك إيذاناً بزوالها ثم يخلفها غيرها ؟

كذلك فى مسألة الحضارات التى تندثر ليحلَّ محلَّها حضارات أخرى أقوى ، نسمع عن حضارة قديمة فى مصر وفى الصين وفى اليمن ، نسمع عن الحضارة الرومانية والفينيقية .. الخ حضارات تتوالى وتأخذ حظها من الرُّقىِّ والرفاهية ، وتُورث أصحابها رخاوة وطراوة ، وتبدلهم بالجَلَد والقوة ليناً وضَعْفاً ، فيغفلوا عن أسباب رُقيِّهم وتقدُّمهم ، فتنهدم حضارتهم ويحلُّ محلَّها أقوى منها وأصلب .

وهذا مثال ونموذج فى حضارة بلغت أوج عظمتها : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ [الفجر]

وإلى الآن ، ونحن نرى آثار الحضارة الفرعونية ، وكيف أنها تجذب انتباه أصحاب الحضارات الحديثة وتنال إعجابهم ، فيأتون إليها من كل أنحاء العالم ، مع أن حضارة عاد كانت أعظم منها ؛ لأن الله تعالى قال فى حقها : ﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر]

ومع ذلك لا نرى لهم أثراً يدل على عظَم حضارتهم ، ولم يكُنْ لهذه الحضارة مناعة لتحمى نفسها ، أو تَحتفظ لها بشىء ، فانهارت وبادتْ ولم يَبْقَ منها حتى أثر .

كذلك أتباع الرسل يمرُّون بمثل هذه الدورة ، فبعد قوة الإيمان تصيبهم الغفلة ويتسرب إليهم الضعف وسوء الحال ، إلى أن يرسل الحق سبحانه رسولاً جديداً .

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المؤمنون]

المعنى فى الجملة الأولى واضح ، فأىُّ أمة لا يمكن أنْ تسبق

أجلها الذى حدَّده الله لها ، ولا يمكنْ أن تنتهى أو تقوَّض قبل أنْ يحلَّ هذا الأجل .

لكن ما المراد بقوله سبحانه : ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المؤمنون] كيف يتأتَّى ذلك ؟ فهمنا : لا تسبق أجلها يعنى أجلها أن تقوض بعد عشرين سنة ، فلا يمكن أن تُقوَّض قبل خمس عشرة ، أما كونها تستأخر بعد أن بلغتْ العشرين إلى عشرة ، فكيف يتم ذلك ؟

نقول : لا تستأخر يعنى : من حيث الحكم هى لا تسبق الأجل وهى محكوم عليها بأنها لا تستأخر ؛ لأن الاستئخار بعد بلوغ الأجل مستحيل ، كما لو قلنا : شخص بلغ سنَّ العشرين لا يقدر أن يموت فى العاشرة . فالمعنى : الأصل فيه أنه لا يستأخر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿تَتْرَا .. ﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون] يعنى : متوالين يتبع بعضهم بعضاً ؛ لذلك ظنَّها البعض فعلاً وهى ليست بفعل ، بدليل أنها جاءت فى قراءة أخرى[1] ( تترًا ) بالتنوين والفعل لا يُنوَّن ، إذن : هى اسم ، والألف فيها للتأنيث مثل حُبْلى .

أضفْ إلى ذلك أن التاء الأولى تأتى فى اللغة بدلاً من الواو ، كما جاء فى الحديث الشريف من نصيحة النبى ﷺ : « احفظ الله

(١) هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو بالتنوين على أنه مصدر أدخل فيه التنوين على فتح الراء . [ تفسير القرطبى ٦/٤٦٥٩ ] .

يحفظك ، احفظ الله تجدْه تجاهك ـ أو وجاهك »[1] يعنى : مواجهك .

فإذا أُبدلَتْ التاء الأولى فى ( تترا ) واواً تقول ( وترا ) يعنى : متتابعين فَرْداً فَرْداً ، والوتر هو الفرْد .

ثم يقول سبحانه : ﴿ كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ .. (٤٤) ﴾ [المؤمنون] فهذه طبيعة ولازمة من لوازم المرسل إليهم ، وما من رسول أُرسل إلى قوم إلا كذَّبوه ، ثم يلجأ إلى ربه : ﴿ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (٣٩) ﴾ [المؤمنون]

ولو لم يُكذَّب الرسول ما كان هناك ضرورة لإرساله إليهم ، وما جاء الرسول إلا بعد أن استشرى الباطل ، وعَمَّ الطغيان ، فطبيعى أنْ يُكذِّب من هؤلاء المنتفعين بالشر المستفيدين من الباطل والذين يدافعون عنه بكل قواهم ، وكأن تكذيبهم للرسل دليل على صواب مجيء الرسل ، وإلا لما كان هناك ضرورة لرسالات جديدة .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا .. (٤٤) ﴾ [المؤمنون] يعنى : يمضى واحد ويأتى غيره من الرسل ، أو نهلك المكذِّبين ثم يأتى بعدهم آخرون ، فيكذبون فنهلكهم أيضاً .

﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ .. (٤٤) ﴾ [المؤمنون] أحاديث : إما جَمْعاً لحديث كما نقول : أحاديث رسول الله ﷺ أو جمع : أحدوثة . وهى المقولة التى يتشدَّق بها الجميع ، وتلوكُها كل الألسنة ، ومن ذلك قول الإنسان إذا كثُر كلام الناس حوله : ( جعلونى حدوتة ) يعنى على سبيل التوبيخ والتقريع لهم .

فقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ .. (٤٤) ﴾ [المؤمنون] كأنه لم يبْقَ منهم

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ( ١/٢٩٣ ، ٣٠٣ ، ٣٠٧ ) ، والترمذى فى سننه ( ٢٥١٦ ) ، وقال : « حديث حسن صحيح » من حديث عبد الله بن عباس .

أثر إلا أنْ نتكلم عنهم ، ونذكرهم كتاريخ يُحْكَى ، وفي موضع آخر قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ .. ⟨١٩⟩ ﴾ [سبأ]

ثم يقول تعالى عنهم كما قال عن سابقيهم : ﴿ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ⟨٤٤⟩ ﴾ [المؤمنون] يعني : بُعْداً لهم عن رحمة الله ، وبُعْداً لهم عن نعيم الله الذي كان ينتظرهم ، ولو أنهم آمنوا لنالوه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ⟨٤٥⟩ ﴾

تكررت قصة موسى ـ عليه السلام ـ كثيراً ومعه أخوه هارون ، كما قال : ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ⟨٣١⟩ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ⟨٣٢⟩ ﴾ [طه] والبعض يظن أن موسى جاء برسالة واحدة ، لكنه جاء برسالتين : رسالة خاصة إلى فرعون ملخّصها : ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ .. ⟨٤٧⟩ ﴾ [طه]

وجاء له بمعجزات تثبت صدْق رسالته من الله ، ولم يكن جدال موسى لفرعون في مسألة الإيمان جزءاً من هذه الرسالة ، إنما جاء هكذا عرضاً في المناقشة التي دارتْ بينهما .

والرسالة الأخرى هي رسالته إلى بني إسرائيل متمثلة في التوراة .

وقوله : ﴿ بِآيَاتِنَا .. ⟨٤٥⟩ ﴾ [المؤمنون] قلنا : إن الآيات جمع آية ، وهي الشيء العجيب الملفت للنظر الفائق على نظرائه وأقرانه ، والذي يكرم ويفتخر به . والآيات إما كونية دالّة على قدرة الله في الخَلْق كالشمس والقمر .. إلخ كما قال سبحانه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ .. ⟨٣٧⟩ ﴾ [فصلت]

ومهمة هذه الآيات الكونية أنْ تلفت نظر المخلوق إلى بديع صنع الخالق وضرورة الإيمان به ، فمنها نعلم أنّ وراء الكون البديع خالقاً وقوة تمده وتديره ، فَمَنْ يمدُّ هذه الشمس بهذه القوة الهائلة ؟ إن التيار الكهربائى إذا انقطع تُطْفأ هذه اللمبة ، فمَنْ خلق الشمس من عدم ، وأمدَّها بالطاقة من عدم ؟

إذن : وراء هذا الكون قوة ما هى ؟ وماذا تطلب منا ؟ وهذه مهمة الرسول أنْ يُبلغنا ، ويُجيب لنا عن هذه الأسئلة .

وتُطلَق الآية أيضاً على المعجزة التى تثبت صِدْق الرسول فى البلاغ عن الله .

وتُطلق الآية على آيات القرآن الحاملة للأحكام والحاوية لمنهج الله إلى خَلْقه .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المؤمنون] فعطف ﴿ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المؤمنون] على ﴿ بِآيَاتِنَا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [المؤمنون] وهذا من عطف الصفة على الموصوف لمزيد اختصاص ؛ لأن الآيات هى السلطان ، فالسلطان : الحجة . والحجة على الوجود الأعلى آيات الكون ، والحجة على صِدْق الرسول المعجزات ، والحجة على الأحكام الآيات الحاملة لها .

وسَمَّى معجزة موسى عليه السلام ( العصا ) سلطاناً مبيناً أى : محيطاً ؛ لأنها معجزة متكررة رأينا لها عدة حالات : فهذه العصا الجافة مرة تنقلب إلى حيَّة تلقَفُ الحيّات ، ومرة يضرب بها البحر فينفلق ، ومرة يضرب بها الحجر فيتفجر منه الماء ، وفوق ذلك قال عنها : ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ [طه]

ومن معانى السلطان : القَهْر على عمل شىء أو الإقناع بالحجة لعمل هذا الشىء ، لذلك كانت حجة إبليس الوحيدة يوم القيامة أن يقول لأتباعه : ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] يعنى : كنتم رَهْن الإشارة ، إنما أنا لا سلطانَ لى عليكم ، لا سلطانَ قهر ، ولا سلطان حجة .

لذلك قال فى النهاية : ﴿مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢)﴾ [إبراهيم] والإنسان يصرخ إذا فزَّعه أمر لا حيلة له به ، فيصرخ استنفاراً لمعين يُعينه ، فمَنْ أسرع إليه وأعانه يقال : أصرخه . يعنى : أزال سبب صراخه .

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿فِرْعَوْنَ .. (٤٦)﴾ [المؤمنون] لقب لكل مَنْ كان يحكم مصر ، مثل كِسْرى فى الفرس ، وقيصر فى الروم ، وتكلَّمنا عن معنى ( الملأ ) وهى من الامتلاء ، والمراد القوم الذين يملؤون العيون مهابةً ومنزلةً ، وهم أشراف القوم وصدور المجالس ، ومنه قولهم : فلان قَيْد النواظر يعنى : مَنْ ينظر إليه لا ينصرف عنه إلى غيره .

وقوله تعالى : ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦)﴾ [المؤمنون] والاستكبار غير التعالى ، فالمستكبر يعلم الحكم ويعترف به ، لكن يأبى أنْ يطيعه ، ويأنف أن يصنع ما أمر به ، أما العالى فهو الذى يظن أنه لم يدخل فى الأمر من البداية .

ومن هنا جاء قوله تعالى لإبليس لما أبى السجود لآدم : ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥)﴾ [ص]

والعالون هم الملائكة المهيَّمون في الله ، والذين لا يدرون شيئاً عن آدم وذريته .

﴿ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَـٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

اعترضوا أيضاً هنا على بشرية موسى وهارون كما حدث من الأمم السابقة ، إنهم يريدون الرسول ملكاً ، كما جاء في موضع آخر : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ومن الغباء أن يطلبوا ملكاً رسولاً ، فلو جاءهم الرسول ملكاً ، فكيف سيكون أسْوة للبشر ؟ وكيف سيرونه ويتلقَّوْن عنه ؟ إذن : لا بُدَّ أنْ يأتيهم في صورة بشر ؛ لذلك يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الأنعام]

وستظل الشبهة قائمة ، فما الذي يجعلك تُصدِّق أنه ملك ؟

وقوله تعالى : ﴿ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون] يعني : كيف نؤمن لموسى وهارون وقومهما - أي : بني إسرائيل - خدم لنا ، يأتمرون بأمرنا ، بل ونُذلّهم ونُذبِّح أولادهم ، ونستحيي نساءهم ، ونسومهم سوء العذاب ؟

وسمَّى ذلك عبادة ، لأن مَنْ يخضع لإنسان ، ويطيع أمره كأنه عبده .

﴿ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

أي : بالغرق ، وهذه قصة مشهورة معروفة ، وجعلها الله مُثْلة وعبرةً .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

﴿ الْكِتَابَ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : التوراة ، وفيه منهج الهداية ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [المؤمنون] أى : يأخذون الطريق الموصّل للغاية الشريفة المفيدة من أقصر طريق .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ(١) ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

بعد أن أعطانا هذه اللقطة الموجزة من قصة موسى وهارون انتقل إلى المسيح ابن مريم ، والقرآن فى حديثه عن عيسى عليه السلام مرة يقول : ابن مريم ومرة يقول : عيسى بن مريم . وتسمية عيسى عليه السلام بأمه هى التى جعلتْ سيدتنا وسيدة نساء العالمين مريم ساعة تُبشَّر بغلام تستنكر ذلك ، وتقول : كيف ولم يمسسنى بشر ؟ ولم يخطر ببالها أنها يمكن أنْ تتزوّج وتُنجب ، لماذا ؟ لأن الله

---

(١) الربوة : ما ارتفع من الأرض . قال ابن كثير فى تفسيره ( ٢٤٦/٣ ) : « اختلف المفسرون فى مكان هذه الربوة من أى أرض هى ؟

- بمصر . قاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، ليس الربى إلا بمصر . قال ابن كثير : وهو بعيد جداً .
- دمشق . قاله سعيد بن المسيب . وقال ابن عباس : أنهار دمشق .
- الرملة من فلسطين . قاله أبو هريرة .
- بيت المقدس . قاله الضحاك وقتادة .

قال ابن كثير : « هذا والله أعلم هو الأظهر ؛ لأنه المذكور فى الآية الأخرى ، والقرآن يفسر بعضه بعضاً ، وهذا أولَى ما يُفسّر به ثم الأحاديث الصحيحة ثم الآثار » .

سمّاه ابن مريم ، وما دام سماه بأمه ، إذن : فلن يكون له أب .

وليس أصعب على الفتاة من أن تجد نفسها حاملاً ولم يمسسها رجل ؛ لأن عِرْض الفتاة أغلى وأعزّ ما تملك ، لذلك مهّد الحق - تبارك وتعالى - لهذه المسألة ، وأعدّ مريم لاستقبالها ، وأعطاها المناعة اللازمة لمواجهة هذا الأمر العجيب ، كما نفعل الآن فى التطعيم ضد الأمراض ، وإعطاء المناعة التى تمنع المرض .

فلما دخل زكريا - عليه السلام - على مريم فوجد عندها رزقاً لم يأتِ به ، وهو كفيلها والمسئول عنها ، سألها : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ .. (٣٧) ﴾ [آل عمران] وكان هذا الردّ من مريم عن فَهْم تام لقضية الرزق ، ولم يكُنْ كلام دراويش ، بدليل أنها قالت بعدها : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) ﴾ [آل عمران]

وفى هذا الموقف درس لكل أب ولكل ولىّ أمر ورب أسرة أن يسأل أهل بيته عن كل شىء يراه فى بيته ولم يأتِ هو به ، حتى لا يدعَ لأولاده فرصة أنْ تمتد أيديهم إلى ما ليس لهم .

لقد انتفع زكريا - عليه السلام - بهذا القول وانتبه إلى هذه الحقيقة ، نعم زكريا يعلم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ، لكن ذلك العلم كان معلومة فى حاشية الشعور ، فلما سمعها من مريم خرجتْ إلى بُؤْرة شعوره ، وعند ذلك دعا الله أن يرزقه الوَلد وقد بلغ من الكِبَر عتياً ، وامرأته عاقر .

وكذلك انتفعت بها مريم حين أحسَّتْ بالحمل دون أن يمسسْها بشر فاطمأنتْ ؛ لأن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ .. (٥٠) ﴾ [المؤمنون] فأخبر

سبحانه عن المثنى بالمفرد ﴿آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] لأنهما مشتركان فيها : مريم آية لأنها أنجبت من غير زوج ، وعيسى آية لأنه وُلد من غير أب ، فالآية إذن لا تكون فى أحدهما دون الآخر ، وهما فيها سواء .

لذلك يراعى النص القرآنى هذه المساواة فيُقدِّم عيسى فى آية : ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً .. (٥٠)﴾ [المؤمنون] ويقدم مريم فى آية أخرى : ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (٩١)﴾ [الأنبياء] هذه العدالة فى النص لأنهما سواء فى الخبرية لا يتميز أحدهما على الآخر .

والآية هى الأمر العجيب الذى يُثبت لنا طلاقة قدرة الخالق فى الخَلْق ، وحتى لا يظن البعض أن مسألة الخَلْق مسألة ( ميكانيكية ) من أب وأم ، لذلك كان وجه العجب فى خَلْق عيسى أن يخرج عن هذه القاعدة ليجعله الله دليلاً على قدرته تعالى ، فإنْ أراد أنْ يخلق خلق من العدم ، أو من أب فقط ، أو من أم فقط ، وحتى فى اكتمال العنصرين يوجد الأب والأم ، لكن لا يوجد الإنجاب ، إذن : المسألة إرادة لله عز وجل ، وطلاقة لقدرة إلهية لا حدودَ لها .

يقول سبحانه : ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. (٥٠)﴾ [الشورى]

والآن نلاحظ أن البعض يحاول منع الإنجاب بشتى الوسائل ، لكن إنْ قُدِّر له مولود جاء رغم أنف الجميع ، ورغم إحكام وسائل منع الحمل التى تفننوا فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)﴾ [المؤمنون] من الطبيعى بعد أن حملتْ مريم بهذه الطريقة أنْ تُضطهد

من قومهـا وتُطارد ، بل وتستحى هى من الناس وتتـحاشى أن يراها أحد ، ألا ترى قوله تعـالى عن ابنة شعيب : ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ .. ﴿٢٥﴾﴾ [القصص] على استحياء ، لأنـها ذهبت لاستدعاء فتىً غريب عنهـا ، فما بالك بمريم حين يراها القوم حـاملاً وليس لها زوج ؟ إنها مسألة أصعب ما تكون على المرأة .

لذلك لمـا سئل الإمـام محـمد عـبده وهو فى باريس : بأىِّ وجـه قابلتْ عائشـة قومها بعد حادثة الإفك ؟ فألهـمه الله الجواب وهداه إلى الصواب ، فقال : بالوجه الذى قابلتْ به مريمُ قومها وقد جاءتْ تحمل ولدها ؛ ذلك لأنـهم أرادوا أنْ يأخـذوها سُـبـة ومطـعناً فى جـبـين الإسلام .

ولما كانت مريم بهذه الصفة تولاها الله ودافع عنها ، فهذا يوسف النجار وكان خطيب مـريم حين يرى مسألة حَمْلهـا ، وهو أغْير الناس عليها بدل أنْ يتـشكك فيها ويتهمـها يتحوّل قلبه عليهـا بالعطف ، كما قال تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال]

فإذا به يخـدمهـا ويحنُو عليهـا ؛ لأن الله أنزل المسألة علـى قلبه منزل الرضا ، وكل مـا قاله فى مجـادلة مريم وفى الاستـفسار عـمَّا حدث بطريقـة مهذبة : يا مـريمُ أرأيتِ شجرة بدون بذرة ؟ فـضحكتْ مريم وقد فهمت ما يريد وقالت : نعم الشجرة التى أنبتت أول بذرة[1] إنه كلام أهل الإيمان والفهم عن الله .

لذلك آواها الله وولدها ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾

(١) أورده ابن كثيـر فى تفسيره ( ١١٦/٣ ) وفيـه أن مريم عليها السلام ردت عليـه فقالت : « أمـا قولك هل يكون شـجر من غـير حـب وزرع من غيـر بذر فإن الله قـد خلق الشجـر والزرع أول ما خلقـهما من غيـر حب ولا بذر ، وهل يكون ولد من غير أب فـإن الله تعالى قد خلق آدم من غير أب ولا أم » فصدّقها وسلم لها حالها .

[المؤمنون] وساعةَ تسمع كلمة الإيواء تفهم أن شخصاً اضطر إلى مكان يلجأ إليـه ويأوى إليه ، وكذلك كـانت مريمُ مضطرة تحـتاج إلى مكان يحتويهـا وهى مضطهدة من قومـها . ولا بُدَّ فى مكان الإيواء هذا أنْ تتوفر فيه مُقـوِّمات الحياة ، خاصة لمثل مريم التى تستـعد لاستقبال وليدها ، ومقومات الحياة : هواء وماء وطعام .

فانظر كيف أعـدَّ الحق ـ سبحانه وتعـالى ـ لمريم مكان الإيواء : ﴿ وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ .. ۝٥٠ ﴾ [المؤمنون] وهى المكان العالى عن الأرض المنخفض عن الجبل ، فهو معتدل الجو ؛ لأنه بين الحرارة فى الأرض المستوية والبرودة فى أعلى الجبل .

﴿ ذَاتِ قَـرَارٍ .. ۝٥٠ ﴾ [المـؤمنون] يعنى : توفـرتْ لهـا أسـبـاب الاستقرار من مـاء وطعام ، فالماء يأتيها من أعلى الجبـال ويمرُّ عليها ماءً معـيناً ، يعنى : تراه بعينك ، والطعام يأتيهـا من ثمار النخلة التى نزلت بجوارها .

ومعـلوم أن الربوة هى أنسب الأماكن حـيث يمر عليـها المـاء من أعلى ، ولا يتبقى فيهـا مياه جوفية تضرُّ بمزروعـاتها ؛ لأنها تتصرف فى الأرض المنخفضة عنها .

لذلك ضرب لنـا الحق ـ تبارك وتعالى ـ المـثل للأرض الخصـبة التى تؤتى المحصول الوافر ، فقال : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ .. ۝٢٦٥ ﴾ [البقرة]

إذن : اختـار الله تعالـى لمريم القـرار الذى تتوفـر فيـه مقـومات الحياة على أعلى مستوى بحيث لا تحتاج أن تنتقل منه إلى غيره .

وبعد ذلك يتكلم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ عن قضية عامة بعد أن تكلَّم عن القـرار ومُقوِّمـات الحيـاة ، وهى الطعام والشـراب والهواء ،

فناسب ذلك أن يتكلم سبحانه عن المطعم :

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾

لكن ، كيف يخاطب الحق ـ تبارك وتعالى ـ الرسل جميعاً فى وقت واحد ؟ نقول : لأن القرآن الكريم هو كلام الله القديم ، لم يأتِ خاصاً بمحمد ﷺ ، وإنْ نزل عليه فهو إذن خطاب لكل رسول جاء .

وبعد أن أمرهم الحق سبحانه بالأكل من الطيب أمرهم بالعمل الصالح : ﴿ وَاعْمَلُوا صَالِحًا .. (٥١) ﴾ [المؤمنون] ثم يقول سبحانه : ﴿ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) ﴾ [المؤمنون] كأن الحق سبحانه يقول : اسمعوا كلامى فيما آمركم به ، فأنا عليم وخبير بكل ما يُصلحكم ؛ لأننى الخالق الذى أعلم كيف تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير ، ولا تستقيم بنيتكم للحركة الصالحة للخير إلا إذا أخذتم المطعم من الحلال الطيب .

وكما قلنا : إن صانع الآلة يضع لها الوقود المناسب لتشغيلها ، وإلاّ تعطلتْ عن أداء مهمتها .

فلكى تؤدى الصالح فى حركة حياتك عليك أنْ تبدأ بالمطْعَم الطيب الذى يبنى ذراتك من الحلال ، فيحدث انسجاماً بين هذه الذرات ، وتعمل معاً متعاونة غير متعاندة ، وإن انسجمتْ ذراتُك وتوافقتْ أعانتك على الصالح .

فإنْ دخل الحرام إلى طعامك وتلوثتْ به ذراتُك تنافرتْ وتعاندت ، كما لو وضعتَ للآلة وقوداً غير ما جُعل لها ، فافهموا هذه القضية ؛ لأننى أنا الخالق فآمنُوا لى كما تؤمنونَ بقدرة الصانع حين يصنع لكم صناعة ، ويضع لكمَ قانون صيانتها .

إذن : أمر الحق سبحانه أولاً رسله بالأكل من الطيبات ؛ لأن